فشة خلق..

يقولون: لكل مسمى من اسمه نصيب، قد يصح هذا القول في أحوال، ولا يصح في أحوال، فمن الرجال الذين أعرف أسماءهم: ربيع وبدر، أما ربيع فلو سماه أهله في مولده المبارك بشباط لكان له من اسمه النصيب الأوفى، وأما بدر فلو سماه أهله: ظلاماً لما غلطوا، وقد فطن إلى هذا التباين بين المسمى والاسم قدماء رجالنا، فقد التقى المتنبي في بعض منازل سفره بعبد أسود، قبيح المنظر، فقال له: ما اسمك يا رجل؟ فقال: زيتون! فقال المتنبي يداعبه:

سموك زيتوناً وما أنصفوا لو أنصفوا سموك زعروراً!

لأن في الزيتون زيتاً يضيء وأنت لا زيتاً ولا نوراً!

* * *

إذا لم يصح القول الذي أشرت إليه في بعض الأحوال فأرجو أن يصح في هذا الاسم: الناقد، وما أردت بقولي: الناقد، إلا مجلتنا هذه التي آمل أن تذهب في النقد كل مذهب سديد.

إني آسف على أن أرى كل شيء في حياتنا أصبح فوضى. وإذا كانت حياتنا فوضى فمن بدائه الأمور أن يكون نقدنا فوضى، فما شعرت بشيء انحدر أسوأ منحدر مثل النقد، فكل فتى يستطيع أن

يمسك بالقلم بيده اللطيفة يعتقد أنه يستطيع أن يضطلع بالنقد كل مضطلع، سواء أكان في باب الأدب، نثره وشعره، أم كان في باب الفن، أم كان في باب الموسيقى، أم كان في غير هذه الأبواب كلها، وليت اعتقاده وقف عند هذا الحد، فإنه قد يعتقد أنه يستطيع أن يدك بيده الناعمة كل جبل من الجبال، فما هي عواقب أوهام من هذا الشكل؟ إنها تقعد بأصحابها عن توسيع آفاق ثقافتهم في الموضوعات التي يشعرون بميل إليها، وهم لا يعلمون أنهم لا يدكّون جبلاً من الجبال وإنما يكسرون أقلامهم وحدها، فقد اشتغل بالمتنبي في القديم فحول الرجال، واشتغل بشوقي في الحديث طبقة مثلهم، ماذا كانت النتيجة؟ إن المتنبي لا يزال بعد ألف سنة مالئ الدنيا وشاغل الناس، و«شوقي» لا يزال الشاعر الذي أحيا في شعره أساليب أبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم من أعاظم شعرائنا الخالدين.

فأرجو أن لا يجول في النقد قلم من الأقلام قد يكون فجّاً، أو قد تظهر عليه آثار النقد من السطوح لا من الأعماق، أما النقد من جهة الأعماق فقد اجتمعت شروطه في أكبر نقاد في القرن التاسع عشر، وقد يكون بعض الفائدة في تلخيص هذه الشروط.

لقد أعدت من أسبوع قراءة تاريخ الأدب الفرنسي الذي درسته من خمسين سنة، فرأيت فيه ما لم أر من قبل، وفهمت منه ما لم أفهمه. حامل لواء النقد الفرنسي في القرن التاسع عشر

«سانت بوف» ولم يحمل اللواء وحده، وإنما حمل بين جنبيه ما يقتضيه النقد من الصفات. كان «سانت بوف» طلعة، فقد اهتم برجال كل العصور، وبآثارها، وكان من الصابرين، فقد عرف كيف يدرس وثيقة من الوثائق، حتى يستخرج منها كل ما تشتمل عليه، وحتى يدرك تفاصيل الأمور في كل رجل، وكل حادث، وكان فهِمَاً، فقد عرف كيف ينسى نفسه في خلال النقد، وكيف يتخلى عن أفكاره ليدخل في أفكار من ينقده، وليقف موقفه، فيتعمق في الآثار ويقلب النظر فيها من مجامع المشاهد، ويلز أجزاءها، بعضها إلى بعض، ويحيط بها ويفهمها أدق فهم، وكان مرناً، فقد تنقل بمهارة بارعة من كاتب إلى كاتب، فتثنى وتلوى أمام الأفهام والأذهان على اختلاف حالاتها، وكان صاحب ذوى لطيف وحكم سديد.

هذه صفات أكبر ناقد عرفه القرن التاسع عشر، فهل ننتفع بهذه الصفات فلا يكون نقدنا عبارة عن: فشة خلق!

الناقد ١٩٦٤

الأندلس الثانية

لا شك في أن بين رجال جامعة الدول العربية أدباء، ورئيس الجامعة نفسه شاعر من الشعراء، فهم يحفظون بعض الشعر، وإذا قل محفوظهم منه فلا يخلو هذا المحفوظ، على ما أعتقد، من قصيدة من القصائد خالدة على وجه الدهر، وأعني بها قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرّنديّ في رثاء الأندلس.

قال الرنديّ قصيدته والأسى يفيض على جنبات قلبه، والدمع ينحدر على صفحات خديه، فلم يستطع ماء العين أن يطفئ نار القلب، ولست أعلم شعراً يصور فجيعة المرء بوطنه، مثل هذا الشعر، ولا أحفظ قصيدة تهزّ قلب المرء في الخروج من دياره نظير هذه القصيدة، فإذا طوينا العصور التي تعاقبت على جلاء العرب عن الأندلس وجئنا عصرنا هذا فإنّا نستطيع أن نتصور حالة فلسطين يوم يُغلب أهلها على أمرهم.

لقد بكى الرنديّ على جزيرة الأندلس، بكى على علوم قرطبة ونزه حمص، وللعرب في فلسطين شيء أجلُّ من العلوم والنُّزَهِ إن لهم في تراب فلسطين المقدس ضحايا هادئة في مراقدها، تحت سفوح الجبال وعلى جوانب الأودية وبين أفياء السهول، إن لهم في

هذا التراب ماضياً جليلاً يحمل دماً طاهراً ولغة كريمة وأدباً غضاً ودیناً قویماً، فإذا أخرج عرب فلسطين من ديارهم ذهب هذا الماضي وذهب معه الدم واللغة والأدب والدِّين.

وإذا كانت المساجد في أيام الرنديّ قد صارت كنائس فإن المساجد والكنائس في خروج العرب من فلسطين قد تصبح تعبدات لليهود يتلون فيها التلمود؛ فلا تبكي فيها المآذن وحدها وإنما تبكي المآذن والنواقيس والصُّلبان، تبكي على ديار خالية من أشد الأشياء تقديساً في نظر النصارى والمسلمين.

فإذا خرج العرب من فلسطين خرجوا حيارى لا دليل لهم؛ عليهم ألوان من ثياب الذل.

ولكن شيئاً واحداً وقع في الأندلس ونرجو أن لا يقع اليوم، لقد استنجد الرنديّ بملوك ما وراء البحر الراكبين عناق الخيل، الحاملين سيوف الهند؛ الراتعين في دعة وعز وسلطان، فلم يهتز منهم أحد لقتلى المسلمين وأسراهم، أما اليوم فلا نزال نسمع أن الخيل التي يركبها ملوك العرب وأمراؤهم ورؤساؤهم من وراء فلسطين، وأن السيوف التي يحملونها وأن العز الذي ينعمون به، كل هذا قد جعلوه في سبيل فلسطين!

بالأمس تخاذل المسلمون في الدفاع عن الأندلس فذهبت الأندلس، فهل نرى اليوم اليمن والحجاز ونجداً والعراق وشرقيّ الأردن والشام ولبنان ومصر وطناً واحداً يجمعه شعور واحد في

الدفاع عن فلسطين؟.

هذا أملنا الوحيد، فنحن لا نذكّر رجال جامعة الدّول العربية بقصيدة الرنديّ لإدخال اليأس على قلوبهم، وإنما نذكّرهم بها لإدخال الأمل والرجاء على هذه القلوب.

فإذا أرادوا أن يعرفوا منزلة الوطن في النفوس فليذكروا ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾!

القبس ١٩٤٦

الفتاة الملعونة

اطلع أحد الأصدقاء على رواية أميركية اسمها: الفتاة الملعونة، مؤلف هذه الرواية كاتب درس الأدب في إحدى جامعات أميركة، فانصرف إلى كتابة الروايات، وعالج فيها موضوعاً خاصاً وهو موضوع المرأة.

وقد أُولع بتتبع النساء المنحرفات، فكان يتتبعهن في سيرتهن، فيقف على اعوجاج أخلاقهن وطبائعهن، ويبحث عن علل هذا الاعوجاج فيرده إلى أصوله، فيعذر المرأة حيناً ويلومها حيناً.

خلاصة رواية: الفتاة الملعونة، أنّ رجلاً هاجر إلى الولايات المتحدة، وبعد أن أقام بإحدى ولاياتها ووجد له مرتزقاً تزوج امرأة أحبها فرزقه الله أولاداً في جملتهم بنت دفعها إلى الجامعة، فعكفت البنت على دراسة الأدب الإنكليزي، وفي خلال التحصيل تعرفت إلى كثير من شباب الجامعة؛ لأن الواجب على كل فتاة في الجامعات الأميركية أن تعاشر أكثر ما يمكنها من الشباب، وكذلك الواجب على كل فتى أن يعاشر أكثر ما يمكنه من الفتيات، والذين يبعدون عن هذه المعاشرة يرمون بالشذوذ في طبائعهم. إلا أن المخالطة تؤدي في أكثر الأحيان إلى الزواج.

تعرفت «الفتاة الملعونة» إلى شاب اجتمع له نصيب من الجمال مع شيء من الفتنة والسحر، فاستطاع هذا الشاب أن يسيطر عليها حتى نال منها ما يريد، وكان يعدها أن يتزوجها، ثم علق بفتاة جديدة فانصرف إليها، فكتمت «الفتاة الملعونة» هذا الأمر عن أهلها المحافظين، إلا أن أخلاقها ساءت واختلت كل أمورها وقل نجاحها في الامتحانات، فكثرت عليها بسبب ذلك نفقة التحصيل وكادت تترك الجامعة لضيق ذات يدها، غير أنها انقادت إلى أحد الرجال واستسلمت له فوجد لها عملاً في إحدى الشركات تعيش منه فكانت تسد نفقات الجامعة من معاشها.

ولكن الأمر المهم الذي ظهر على أخلاقها إنما هو نقمتها على الرجال، فقد اعتقدت أن الناس كلهم يشبهون هذا الفتى الذي استهواها فغشها، نقمت عليهم أشد نقمة، ومن مظاهر نقمتها أنها كانت تريد أن تجر الرجال إلى حبها جراً حتى تشهد تعذيبهم، فإذا رأت في الجامعة أستاذاً وقوراً لجأت في مقابلته ومخاطبته إلى حركات مُغْرِية وأوضاع جذّابة حتى تستميله إليها، فإذا شغل فكره بها وعلمت منه ذلك انصرفت عنه وقد حملت في انصرافها أكبر لذة في نقمتها، ثم إذا اهتدت في خارج الجامعة إلى رجل من الموسرين مدت حبالها حتى تتصل به لترهقه، فإذا علقت به هذه الحبال أخذت تعده وعوداً شتى ثم كانت تخلف الميعاد شاعرة في ذلك بالسرور التام.

وصف الكاتب «فتاته الملعونة» في بعض مواطن الرواية، ويدلُّ هذا الوصف على أن عينيها صغيرتان كأنهما حبتا حمص تكادان تنطقان بخبث صاحبتهما وحيلتها وكذبها وغشها، ولها شفتان تسيل منهما الشهوة، أما شعرها فإنه يشبه شعر العبيد، ليس له رونق، وليس على هذه «الفتاة الملعونة» مسحة من جمال، ولكن لها عوضاً عن ذلك موهبة الاستهواء والإغراء، وهذه الموهبة هي أحبولتها الوحيدة.

* * *

الذي يظهر من فلسفة الرواية أن غضب المؤلف لا ينصب على «الفتاة الملعونة» مثل انصبابه على الفتى الذي كذب عليها ثم سحب يده منها، فالفتاة لو صدق الفتى معها ولم تَزِلّ بها القدم قد يجوز أن تصبح ربة بيت من أحسن الأمهات، فالرواية فيها شيء من روح المسامحة.

* * *

بعد أن حدثني الصديق بهذه الرواية نظر ذهني في الخطأ الذي نقع فيه في الحكم على الفتيات، فنحن إذا علمنا بسيرة فتاة منحرفة تميل في إنحرافها إلى الحيلة والكذب والخداع وأشباه هذه الأخلاق، إذا علمنا بسيرة فتاة من هذا النمط حكمنا على الفتيات كلهن مثل حكمنا عليها، وهذا بعض الظلم، إنّ النساء يحتجن إلى تصنيف كما تصنّف أنواع النبات في الطبيعة، فلكل صنف من

النبات خصائص، وكذلك لكل صنف من النساء أخلاق وطبائع، صِنْفٌ منهن مثل «الفتاة الملعونة» لهن أخلاق هذه الفتاة نفسها، وصنف منهن موصوف بالخلابة لا غير، أي بالحب الكاذب، وهذا الصنف همه تعذيب الرجل بالحب، دون أن تميل نساؤه إلى بعض الأخلاق المعوَجّه.

ليست غايتي أن أحصي أصناف النساء في مقال يستغرق بضعة أسطر، وإنما غايتي في هذه الأسطر القليلة أن نتحفّظ في الحكم على المرأة، فإذا حكمنا حكماً سيئاً على صنف مُعوَجّ من النساء فلا يجوز لنا أن نبسط هذا الحكم على صنف آخر لم تشتهر نساؤه بالإنحراف، فما كل طبقة من النساء تشبه: «الفتاة الملعونة!».

الدنيا ١٩٦٣

العام الجديد

بعد أربع وعشرين ساعة أسلخ عاماً من عمري، فلست أدري ما الحكمة في التعييد في رأس العام الجديد، ما الحكمة في هذا الفرح المتلألئ على وجوه البشر، وفي هذه الملابس البراقة على أبدانهم، وفي هذه المآكل الفاخرة على سفرتهم؟ بعد أربع وعشرين ساعة يقطع الإنسان عاماً من عمره فيفرح لدنو أجله ويعيِّد، ومتى كان الدنُوّ من الموت مظهراً من مظاهر الفرح؟ لست أدري لماذا لا يحزن البشر في رأس العام الجديد بدلاً من الفرح، لماذا لا يحزنون لتجعيدةٍ تزيد في وجوههم، وشعرة تبيضّ في رؤوسهم وسنّ تسقط من أفواههم، لا شك أن الإنسان يترك في رأس العام الجديد وراءه أثراً من آثار الشباب ويهجم عليه أثر من آثار الشيخوخة، فلماذا لا يبكي على شباب يستدبره وهرم يستقبله!

الجواب عن هذا كله سهل، فإن المرء يضجر من حاله ويذهب أمله إلى آتيه، ففي رأس العام الجديد يأمل في حياة أحسن من حياته، وهذا الأمل في تبدل الحياة هو الذي يزيد في نشاط البشر، ولولاه لهرمت البشرية من أيام شبابها، ولكن سرعة تبدل الحياة ليست بالأمر الهين، ليس في الطبيعة انقلاب فجائي، والانقلابات التي نظن أنها حدثت فجأة قد اشتغل بها الزمان أحقاباً طويلة،

فالحياة بطيء تَبدّلُها؛ والبشرية متشابهة في ماضيها وحاضرها وآتيها من حيث غريزتها، فما تشكو منه من أخلاق في أمسها ستشكو منه في غدها، فإذا انفضّت الحرب في خلال العام الجديد فهدأت قلوب الأمهات وجفت دموعهن من الخدود، وبرقت وجوههن، فستحدث مشاكل في السلم قد تنسينا مشاكل الحرب، وأعتقد أن اليوم الذي ينبغي لنا أن نعيِّد فيه إنما اليوم الذي يغيِّر الله فيه خلقتنا، فما دامت أعضاؤنا على هذه الصورة التي تصدر عنها أخلاق كاللؤم والحسد والكذب والنفاق وأمثالها فلا راحة لنا، فإذا تبدلت هذه الأعضاء فقد تتبدل حياتنا فيحق لنا حينئذ أن نفرح بعام جديد، لأنه إذا نقص من أعمارنا فقد يزيد في تمتعنا بأخلاق البشرية الكاملة. أما الذين يعتقدون أن برنامجاً من البرامج قد يستطيع أن يخلق أمة جديدة في عشر سنين أو في عشرين سنة فأظن أنهم يعيشون في عالم بعيد عن عالم الحقائق، قد تعدل البرامج في بعض صفاتنا، أما الصفات الثابتة التي أورثتنا إياها الدهور فقد يطول تعديلها على ما أعتقد، وعلى هذا سيذوق البشر في عامهم الجديد وفي أعوامهم الآتية ما ذاقوه في الماضي من حزن وألم ومضض، أما أنا فإني لا أُعيِّد في رأس العام الجديد ما دام هذا العام يُبعدني عن شبابي، ومهما يقُل الغفلاء من أن لكل سن نوعاً من اللذة فإني لا أرى الشباب يعدِلُه شيء في الحياة، فبعد أربع وعشرين ساعة يقطّب وجهي ويحزن قلبي!

مجلة الناقد ١٩٤٤

ذكرى الصيف

أي ذكرى لصيف أصيفه في قرية هادئة مثل بلودان، بعثر على بعض هضابها قليل من الكروم، وغرس في بعض بساتينها قليل من الشجر، وبقيت جبالها جُرداً من مجامع أطرافها، ترد على القرية صدى ناقوس كنيستها، وأذان مسجدها، ونعيق غربانها وجؤآر بقرها، ونهيق حميرها، أمامها حرمون بثلجه، وتحت أقدامها الزبداني بتفاحه، ومخرج بردى بزراعته.

أي ذكرى لصيف مثل هذا الصيف، ومتى كنا في هذه البلاد نفرق بين الصيف والشتاء، أو بين الخريف والربيع؟ متى كنا نشعر بخصائص كل فصل من الفصول؟ فأي فرق عندنا بين هدوء الصيف وحركة الشتاء أو بين كآبة الخريف وضحك الربيع!

لقد تعودنا أن نعيش عيشة متشابهة الوجوه في الصباح والظهر والمساء، وفي الصيف والخريف والشتاء والربيع، فالحياة عندنا واحدة لا تتغير، لا في أحاديثها ولا في مجالسها ولا في ملاهيها ولا في أي لون من ألوانها، وهذه الوحدة إنما هي السبب في إدخال الجمود على قلوبنا، ولا سيما قلوب الأدباء، لقد جفت قرائحنا لأنها لا تجد ما تجدِّد به نشاطها من حين إلى آخر، فالمقهى الذي

أنتابه واحد لا يتغير، ولي فيه مكان خاص لا أتعداه، وجلساء خاصون لا أتعداهم، وأحاديث خاصة لا أتعداها، وزمن خاص نقضيه في سهرتنا لا نتعداه، فكل شيء في هذا المقهى الذي أتردد إليه متشابه، فالوحدة فيه ظاهرة، كل شيء فيه يعين على الوحشة وعلى الإنقباض وخاصة هذا الدخان المتراكم في فضائه، وهذه الضوضاء!

فمن العبث إذن أن يسألني سائل عن ذكرى الصيف، فإذا كنت لا أشعر بفرق بين صيف وشتاء، وبين خريف وربيع، إلا من حيث الانتقال من مكان إلى مكان، فليس للصيف عندي ذكرى، ولا للخريف ذكرى ولا للشتاء ذكرى، ولا للربيع ذكرى، اللهم إلا ذكرى وحدة الحياة في كل وجه من الوجوه، وما تؤدي إليه هذه الوحدة من وحشة وانقباض!

وإذا كان للصيف عندي ذكرى، فإنها لم تأت من صيف هذه البلاد، وإنما أتت من الانتقال من الشرق إلى الغرب، أتت من انتقالي في آخر صيف من الأصياف من جو بلودان إلى جوّ باريز، ففي هذا الجو وحده شعرت بأن الحياة غير متماثلة الصور، ففي هذا الجو وحده شعرت بأن الحياة لا تعرف الوحدة فلها ألوان مختلفة، ففي كل يوم صورة جديدة في كل مذهب من مذاهب الحياة، في سياستها واجتماعها وأخلاقها وجدّها وهزلها ولهوها وعبثها، كل يوم حادث جديد، وكل يوم وجوه جديدة، وكل

يوم طبيعة مختلفة، في ساعة من الساعات تضحك السماء، ثم تعبس وتقطب، كل يوم شيء جديد!

في هذا الجوّ وأمثاله أشعر بأني على وجه الأرض، في هذا الجوّ وأمثاله أشعر بأن للصيف ذكرى، وخاصة ذكرى الشواطئ حيث يزدحم الرجال والنساء، فلا ترى العين إلا أجساماً ناعمة تستقبل الشمس وتستدبرها منبطحة على رمال كأنها خيوط حرير، أما في جوّ مثل جوّنا فإنّا ندرج الأيام إدراجاً سواء عندنا الصيف والخريف والشتاء والربيع، ومن يدري فقد تكون راحة الفكر في هذه الوحدة في الحياة، وفي هذه الوحشة، وفي هذا الانقباض، فإذا كان للصيف عندي ذكرى فإنها مثل ذكرى أي فصل من الفصول، إنّها ذكرى هذه الوحدة، وهذه الوحشة وهذا الإنقباض!.؟

مجلة الناقد ١٩٤٤

حرمان

القصص التي وضعتها سلمى الحفار الكزبري

انطلقتُ نحو القرية التي تعودتُ أن أقضي فيها آخر يوم من أيام الأسبوع، وكان ذلك في خميس من أخمساء كانون الأوّل، تركت السماء في دمشق صافية لا غيم فيها، وظننت أن هذا الصفاء سأنعم به في القرية، فلما وصلت إلى بلودان استرحت قليلاً في داري حتى هجم علي الليل فنزل رذاذ من المطر، ثم عصفت الرياح فعلمت أن السماء مثلجة ولا ريب، فنمت وكنت أشعر في الليل بكثير من البرد، فلما طلع الصباح رفعت الستارة عن الشُّباك وإذا القرية كلها بيضاء من الثلج، دورها بيض وجبالها بيض وشجرها أبيض، والهدوء يعمها كلها، فلا كلب ينبح ولا حمار ينهق ولا غراب ينعب ولا ديك يصيح ولا بقرة تجأر، وأهل القرية قد قبعوا في دورهم على عادتهم في مثل هذا اليوم ملتفّين على نار الحطب يستدفئون ريثما تشرق الشمس ويذوب الثلج.

ماذا أفعل في يوم مثل هذا اليوم وأنا أستعدّ في الدار للشتاء فلا نار ولا بساط وإنما التخت واللحاف والعباءة ومقعد من المقاعد وهو الديوان، فاستلقيت على الديوان وأمامي شجر الجنينة تحسب

الثلج على أغصانه زهراً أبيض وقلت في نفسي: هذا يوم قراءة. ولم يكن معي إلا قصص وضعتها السيدة سلمى الحفار الكزبري ودفعتها إلي لأقدمها للقراء، وقد كنت تهيأت لقراءتها وتقديمها فلم يتم لي شيء من ذلك.

في حالة مثل هذه الحالة شرعت في قراءة هذه القصص فما كدت أقرأ قصة منها حتى أحسست بأني نقلت من عالم هادئ إلى عالم مضطرب، نقلت إلى عالم لذيذ أليم، موحش مؤنس، مفرح محزن، عالم تكثر فيه المغنيات والسهرات والفتيات الشقر، يتنازع فيه ضياء الشمس وضياء الشعر، وتختلج فيه القلوب وتصدح العواطف وتتزاحم الأهواء، والذين شيعوا أحلامهم ولموا شباكهم من طرق الملاح ورجعوا أدراج الشباب يدركون قيمة هذا العالم وفتنته!

في حالة مثل هذه الحالة شرعت في قراءة قصص السيدة الأديبة سلمى، لقد كنت أرى في هذه القصص الفتيات الشقر وثياب السهرات وضياء الشعر فأستأنس، ثم أرى الموت يخطف هذه الحور والملائكة فأستوحش، فكنت في عاملين متنازعين: عامل الوحشة وعامل الأنس، ولولا قراءة هذه القصص لكنت مسترسلاً إلى أحلامي في قرية يكاد هدوءها يشبه هدوء الموت، لا أسمع حساً ولا أرى جليساً. وكأن هذا الثلج الذي يلف القرية في نواحيها كلها كفن من الأكفان أدرجت القرية فيه!

لست أدري لماذا انتقلت من عالم الهدوء إلى عالم الضوضاء؟ لست أدري لماذا اخترت هذا اليوم لأقرأ هذه القصص فأسمع أحاديث الحب نهاراً كاملاً، فأرى اضطراب العشاق وأشهد قلة نومهم وضعف أكلهم واشتغال ذهنهم وتقطع كلامهم، لماذا نقلتنا السيدة سلمى إلى عالم لا راحة فيه، وإذا وجد الإنسان فيه ساعة لذة وجد إلى جنبها ساعات ألم، وأي ألم أشد من بعد عن حبيب ملك عليك كل طرف من أطراف قلبك، أفما كان الأجدر بي في يوم مثل هذا اليوم أن أعيش في أحلامي فأشهد الموت الأبيض يحيط بجبال القرية ودورها وشجرها؟ ولكن السيدة الفاضلة لم تتركنا في هذا الهدوء فقد أحبت أن تقصّ علينا أحاديث الحب وأحبت أن تشغل بها قلوبنا وهي أحاديث قديمة حديثة، قد تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وتولد مذاهب وتموت مذاهب، وتأتي أمم وتدرج أمم، والحب واحد في كل العصور، لا يفنى ولا يبلى، شغل القلوب في الماضي ويشغلها في الحاضر، وسيظل الحب شاغلنا الشاغل ما دام دمنا يجري وقلبنا يخفق، سيظل شاغل كل واحد منا في صباه وشبابه واكتهاله، ومن يدري فقد يكون حب الشيوخ أشد من حب الشباب، ومن منا يقرأ شعر شوقي الذي يبكي فيه على شبابه ويحن إلى جنون هذا الشباب ولا يشفق على هذه الشيخوخة المرحة المتصابية!

نحمد الله على أن السيدة الفاضلة لم تنقلنا إلى عالم حبه معقّد الجوانب نُتعِب فيه عقولنا حتى نهتدي إلى أسراره، ونُعمِل فيه

رويتنا حتى نصل إلى بواطنه، فإن السيدة سلمى، حفظها الله، لا نجد في أبطالها التعقيد الذي نجده في أبطال بعض قصص من قصص (موباسان) أو (موروا) فالحب الذي يستفيض في قصصها حب بسيط يشبه بساطة السيدة سلمى الحفار نفسها فهو حب عظيم لأن البساطة عنوان العظمة، لا عقدة فيه ولا تنازع عواطف ولا تناقضها، تحدِّث امرأة من النساء زوجها بجمال امرأة أخرى فيعلق بها الرجل ويحبها ويطلّق الزوجة الأولى، وتدخل امرأة في بعض الفنادق غير غرفتها وتستلقي على سرير رجل تظنه أنها زوجها، هذه هي نماذج من المرأة التي تعرضها السيدة في قصصها.

لقد أحبت أن تعرِّب قصصاً (لموباسان)، ولكن موباسان يعرض علينا تناقض العواطف، امرأة تحب زوجها ثم يتصل بها أنه يحب غيرها فتغار ثم تعلم أن المرأة ماتت فتزور مقبرتها وتضع الأزاهير على قبرها، وأحبت أن تعرِّب قصصاً (لموروا)، ولكن (موروا) لا يقتصر على عرض الحب، فإنه يغوص إلى أعماقه فيكشف عن بواطن هذا الرجل الذي يعشق، فيصور ملامح وجهه ودخائل نفسه في كل دقيقة من دقائق الحب وجلائله.

لم تقتصر السيدة سلمى على تصوير نوع واحد من الحب، فإذا صور في بعض قصصها الرجل الطاعن في السن الذي يتزوج شابة، ثم تقع هذه الشابة في حب شاب مثلها فتفر من زوجها، إذا صورت هذا النوع من الحب وجعلت الكهول يقطعون الأمل من الحب ويبكون شبابهم ويعيشون بالذكرى، فإنها لا تلبث أن تنفخ في هؤلاء الكهول شيئاً من الأمل، فتروي حكاية الشابة التي علقت

رجلاً جاوز الخمسين ورأته أملح من الشباب. وهكذا قد نرى في بعض قصصها غرابة المرأة ولغز طبعها، ومن الخطأ أن نجعل للنساء مقاييس نقيسهنّ بها، فمهما تكن المرأة بسيطة في روحها فإنها غريبة في بعض أهوائها وعواطفها، من الخطأ أن نجعل الشباب وحده وسيلة إلى حبها، أو أن نجعل شهرة الرجل وحدها سبيلاً إلى هذا الحب، أو أن نجعل حلاوة حديثه أو غير ذلك من صفاته مثل هذا السبيل، فالمرأة جملة غرائب، ولكل طائفة منها طبائع وأمزجة خاصة، أفلا نعرف فتيات من أنضر الفتيات تزوجن رجالاً من أقبح الرجال، ومع ذلك فقد صفا زواجهن ولم يكدره مكدّر؟ من الخطأ أن نعتقد أن الاكتهال قد يكون سبباً في تنفير المرأة أو أن يكون الشباب سبباً في استمالتها، أو أن يكون الفقر علة في إبعادها أو أن يكون الغنى سبباً في تقريبها، فلكل طائفة من النساء أمزجة وطبائع، والماهر الماهر من الرجال يهتدي إلى أسرار هذه الأمزجة وبواطن هذه الطبائع، فيأتي المرأة من نواحي هذه الأسرار والبواطن فيملك عليها عقلها ولبها، حتى تكون في يده لعبة يسلبها إرادتها وشعورها، فلا تريد إلا ما يريد ولا تشعر إلا بما يشعر به.

ومن محاسن قصص السيدة سلمى الحفار الكزبري أنها لا تخلو من هذه النماذج من النساء، فقد كان الاكتهال في بعض قصصها سبباً في وحشة المرأة، وكان في بعضها سبباً في أنسها، وهكذا تنقلت بنا السيدة الفاضلة في عالم أتقنته الإتقان كله وهو عالم المرأة، فعرفت كثيراً من خصائصه وأحاطت بكثير من أموره، فأحبت أن تشركنا معاشر الشباب والكهول والشيوخ في هذه

المعرفة وهذه الإحاطة، وما أظن أنها أحبت هذا الإشراك إلا لتمهد سبيلاً إلى تعارف المرأة والرجل وإلى تفاهمهما، فما هذا الخلاف بين الرجل والمرأة في أبعد العصور وأقربها إلا نتيجة تناكر المرأة والرجل، فلا هو يفهم روحها ولا هي تفهم روحه، فإذا وصلت المرأة إلى كشف الرجل، ووصل الرجل إلى كشف المرأة استطاع الرجل والمرأة أن يعيشا عيشة هادئة راضية، أما إذا ظل الرجل يجهل المرأة وظلت المرأة تجهل الرجل فتنافرهما بعيد مداه، وأظن أن من غايات السيدة سلمى الحفار الكزبري في وضع قصصها تقصير مدى هذا التنافر حتى يزول في يوم من الأيام، وبهذا جاءت ببرهان على إنسانيتها، فهي لا تشبه المرأة التي ترى النار فتلقي عليها من يابس الحطب، ولكنها إذا آنست النار ألقت عليها سطل ماء، فإذا كانت هذه هي أخلاق السيدة سلمى الحفار الكزبري، فإني أسامحها في دفعي نهاراً كاملاً إلى عالم فيه لذة وألم، فيه شقاوة وسعادة، ولتعذروني الآن في ترك قصصها والرجوع إلى هذا المشهد، مشهد القرية الملتفة بكفنها الأبيض!

بلودان

١٤ كانون الأول ١٩٥١

بين النمل والشجر

غرست من سنتين بعض شجيرات في حديقتي، وقد كان جيراني يقولون لي إن تربة أرضي خصبة وإن شجر التفاح ينمو فيها نمواً عجيباً، حتى حملني خصب التربة على أن أهمل الشجرات بعض الإهمال وكلَّما وقعت عيني على الشجرات النامية في بعض الحدائق عجبت من أن شجر حديقتي لم يبلغ مبالغها في النمو، ولم أفكر في عناية أصحابها من حيث التسميد والري والتنقية والتشذيب وغير ذلك مما يزيد في نمو الشجر.

علمتني هذه المشاهدة عبرة، أننا نريد أن نحصل في الحياة على أعظم شيء دون أن نبذل أهون شيء، نريد مثلاً أن نكون علماء من غير أن نسهر الليالي الطويلة في تحصيل العلم. وإني لأحفظ جملة مشهورة في الأدب الفرنسي وهي أن العبقرية عبارة عن صبر طويل، فلم يصل بلغاء الكتّاب والشعراء إلى ما وصلوا إليه في البلاغة بين عشية وضحاها، وإنما قرأوا كثيراً وفكّروا كثيراً وصبروا طويلاً حتى انقادت البلاغة إليهم، وما مثلهم في ذلك إلا كمثل النمل الذي أرقبه في الحديقة.

في أواخر الخريف أرى النمل وأنا جالس بين الشجر كأنه على

تشبيه الجاحظ خيط أسود ممدود، يدرج إلى مساربه وقد حافظ على النظام ولا محافظة الجند، اشتغل الصيف كله بتحصيل قوته ثم خزنه في مساربه لأيام الشتاء، ولقد أحببت أن ألهو بنملة من هذا النمل فعزلتها عن صفها وحبستها قليلاً، ثم صبرت عليها، فنهضت وتبعت أخواتها، ثم حبستها قليلاً، ثم نهضت وفتشت عن طريق أخواتها وما زلت أعذبها وأضجرها وأضايقها حتى سئمت أنا ما أصنعه بها ولم تسأم النملة عذابها وضجرها وضيقها، فتركتها وشأنها فعادت إلى طريقها ومشت على آثار أخواتها حتى وصلت إلى مساربها.

وهكذا رجال العبقرية، لا يضجرون ولا يسأمون ولا يشكون، وإنما يشتغلون في الليل والنهار حتى يصلوا إلى ما لا يصل إليه غيرهم من البشر.

أقرأ في هذه المجلة فصولاً لصديق كريم أعرفه من عشرين سنة كان في هذه العشرين سنة يشتري كتباً ما قدر على الشراء ثم يطالعها، وإذا ضمّنا مجلس بين حين وآخر أخذ يحدثني بهذه الكتب، وقد كنت أرى على حديثه آثار ثقافة مخمرة ونقد شديد، فكان يحكم على بعض الأمور حكماً صائباً قوياً، فعجبت من زهده في الكتابة وحملته على الشروع فيها، فأقدم عليها من وقت غير بعيد، وهو الآن يلخص أحسن ما يقرأ وقد هضمه، ولكنه لم يكتب ولم ينقد إلا بعد أن صرف عشرين سنة في المطالعة.

هـذا الصديـق لا يريـد أن أذكـر اسمـه، ولكنّـي أخـرج علـى إرادتـه وأذكره فهو: منير سـليمان.

مـا أشـد حاجتنـا إلى صـبر مثـل صـبره، ومـا أشـد حاجتنـا إلى أن نصبر على المطالعة والتفكير صبر النمـل!